

هناز جوج شاد امير

# بلايترا الفليسفة

ترجمة

عائى حاكم صالح  
د. حسن ناظم



الكتاب الجديد



## سيرة غادامير

من أكبر فلاسفة الهرمنوطيقا في القرن العشرين، وكتابه الشاخص على ذلك هو حقيقة ومنهج.

• ولد في ماربورغ بألمانيا في 1900/2/11 وتوفي في هايدلبيرغ في 2002/3/24.

• نال دكتوراه تحت إشراف بول ناتروب، المتخصص في فلسفة أفلاطون، في العام 1922، وأكمل دراسته بكتابة أطروحة عن علم الأخلاق الجدلي عند أفلاطون تحت إشراف مارتن هيدجر وذلك في العام 1928.

• قضى قسطاً كبيراً من حياته في مزاولته التدريس في جامعة هايدلبيرغ.

• من مؤلفاته: حقيقة ومنهج، العقل في عصر العلم، الهرمنوطيقا الفلسفية، بداية المعرفة.

## سيرة المترجمين

■ علي حاكم صالح:

أكاديمي عراقي ومترجم، متخصص في الفلسفة الحديثة.

■ د. حسن ناظم: أكاديمي عراقي

(ناقد ومترجم) متخصص في

الأدب العربي الحديث والنظرية

الأدبية الحديثة، صدر له:

✽ مفاهيم الشعرية (دراسة في

الأصول والمنهج والمفاهيم).

✽ البنى الأسلوبية: دراسة «أنشودة

المطر» للسياب.

■ ترجما معاً:

✽ ست محاضرات في الصوت

والمعنى، رومان ياكوبسون.

✽ نقد استجابة القارئ، تحرير

جين تومبكتر.

✽ نصيات بين الهرمنوطيقا

والتفكيكية، تأليف هيو سلفرمان.

✽ الاتجاهات الأساسية في علم

اللغة، رومان ياكوبسون.

■ لهما قيد الطبع:

✽ القارئ في النص: مقالات في

الجمهور، تحرير سوزان سليمان

وإنجي كروسمان.

✽ عالم جامح: كيف تعيد العولمة

تشكيل حياتنا، إنطوني جدنز.

■ ويعكفان الآن على ترجمة كتاب

✽ غادامير «حقيقة ومنهج»، الذي

سيصدر عن «دار الكتاب الجديد».

# بداية الفلسفة

في هذا الكتاب، يؤمن غدامير بأن موضوعه بداية الفلسفة اليونانية تلامس مشكلات الثقافة الغربية الراهنة. فهذه الثقافة لا تجد نفسها في حالة تغير جذري حسب، إنما ثمة غياب أو انعدام الثقة بالنفس حسب تعبير غدامير. وبوسعنا أن ندرج ما يسميه غدامير حالة غياب الثقة بالنفس ضمن تفسيره للثقافة الغربية التي يهددها ما يمكن تسميته هيمنة التنظيم التقني والعلمي، وتغلغل هذا في جميع أوصال الوجود الغربي، فضلاً عن سيادة العناية المفرطة بالمنهج التي قادت إلى انزراع ثنائية الذات الموضوع في تربة هذا الوجود. وهذا كله أفضى إلى تآكل الإحساس بالحياة والشعور بالانطلاق، وهما إحساس وشعور كانا أمييز ما يميز المغامرة الفكرية التي يؤولها غدامير في محاضراته هذه.

S.R.



مكتبة جرير  
JARIR BOOKSTORE

ريال

29

ISBN 9959-29-111-1



9 799959 291119



دار الكتاب الجديد المتحدة

اوتستراد شاتيل - الطليونة، شارع هادي نصر الله - بناية فرحات وحجيج طابق 5  
خليوي، 03/933989 - هاتف وفاكس 00961/1/542778

توزيع، دار أوبيا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية - زاوية الدهماني، السوق الأخضر  
هاتف، 3338571 - 4449903 - 00218.21/4448750 فاكس، 00218.21/4442758  
ص. ب.، 13498 طرابلس، الجماهيرية العظمى

بِإِيتِ الْفَلَسْفَةِ



هنا نزجورج نغاد امير

# بلايتا فلسفة

ترجمة

علي حاكم صالح د. حسن ناظم

دار الكتاب الجديد المتحدة

## جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

## الطبعة الأولى

أيلول/سبتمبر/الفتاح 2002 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 2002/5001  
ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-111-1  
دار الكتب الوطنية/بنغازي - ليبيا

---

تصميم الغلاف: نقوش

---

## دَارُ الْكِتَابِ الْجَدِيدِ الْمُتَحَدَةِ

أوتوستراد شاتيلا - الطيونة، شارع هادي نصر الله - بناية فرحات وحجيج، طابق 5،

خليوي: 933989 . 03 . هاتف وفاكس: 542778 . 1 . 00961

بيروت - لبنان

---

توزيع دار أويما للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498، هاتف: 4448750 - 4449903 - 3338571 . 21 . 00218 - فاكس: 4442758 . 21 . 00218، طرابلس - الجماهيرية العظمى



# إهداء الترجمة

إلى الأستاذ د. حسام الدين الألوسي عرفانا لعلمه وتعليمه

المترجمان



## مقدمة الترجمة

إن تاريخ الفلسفة جزء من الفلسفة؛ لذا فإن أية محاولة لكتابة تاريخ الفلسفة بعامة، أو حقبة فلسفية، أو تاريخ مفهوم، أو مشكلة، أو نظام فلسفي هي بالنتيجة محاولة فلسفية. غير إننا يجب أن نضع تمييزات بين المحاولات التقليدية والمحاولات الأصيلة. وبالطبع ليس بين أيدينا معيار كلي وجاهز للفصل وإصدار الأحكام، ولصق النعوت والأوصاف. ومع ذلك، تحمل المحاولة نفسها مسوغات تمييزها على هذا النحو أو ذاك. إن كل نص فلسفي، سواء أكان ضمناً أم صراحة، هو قراءة لتاريخ الفلسفة، أو قراءة في تاريخ الفلسفة، غير أن هذا التاريخ ينطوي على تواريخ عدة، وللنص الفلسفي تاريخه المميز ولكن غير المستقل.

إن القراءة والتأويل والإنتاج والإعادة التي يمكن أن تسبق كل فعالية من هذه الفعاليات هي أليات، من بين أليات أخرى، تعمل على تحريك موجات نصوص هذا التاريخ ودفعاها من دون تمتل أو تنطع. ويمكن القول أن ليس ثمة شكل نهائي أو قول فصل في هذه الحالة.

في هذه المحاضرات عن بداية الفلسفة اليونانية يعيد هانز

جورج غادامير - عزّاب الفلسفة الألمانية الذي ما يزال يهوي معنا نحو قرار قرننا الجديد<sup>(1)</sup> - تأويل البداية؛ بداية الفلسفة اليونانية؛ وكيفية تشكلها، وأهمية هذه البداية والفلسفة اليونانية بالنسبة لتاريخ الغرب المعاصر. فهذا هو الهدف الأساسي الذي يعلن عنه غادامير في مطلع هذه المحاضرات، فهو لا يستدعي لحظة الفكر اليونانية لمجرد أرخنتها أو لمجرد طرح قراءة مختلفة، إنما هو يؤمن أن موضوعه بداية الفلسفة اليونانية تلامس مشكلات الثقافة الغربية الراهنة. فهذه الثقافة لا تجد نفسها في حالة تغير جذري حسب، إنما ثمة غياب أو انعدام الثقة بالنفس حسب تعبير غادامير. وبوسعنا أن ندرج ما يسميه غادامير حالة غياب الثقة بالنفس ضمن تفسيره للثقافة الغربية التي يتهددها ما يمكن تسميته هيمنة التنظيم التقني والعلمي، وتغلغل هذا في جميع أوصال الوجود الغربي، فضلاً عن سيادة العناية المفرط بالمنهج التي قادت إلى انزراع ثنائية الذات الموضوع في تربة هذا الوجود. وهذا كله أفضى إلى تآكل الإحساس بالحياة والشعور بالانطلاق؛ وهما إحساس وشعور كانا أُمَيَّرَ ما يميز المغامرة الفكرية التي يؤولها غادامير في محاضراته هذه.

ولكن ما معنى البحث عن البداية؟ فهل يبحث غادامير عن الأصل النقي الذي تنداح منه الفلسفة وربما الأشياء أيضاً؟ يحدد غادامير معاني عدة لمفهوم البداية؟ فهناك البداية بالمعنى الزماني للأصل، كأن يقال مثلاً إن الفلسفة بدأت مع طاليس أو ربما مع الأدب الملحمي لهوميروس وهزيود. فهذا الإرث يمثل الخطوة

(1) توفي غادامير في شهر آذار/مارس 2002 عن مائة وستين أثناء إعدادنا لطبع هذا الكتاب.

الأولى على طريق التفسير العقلاني للحياة والعالم، وهناك معنى للبداية يدلّ ضمناً على النهاية، فهل نصف بداية الفلسفة من منظور انهيارها (دلّتاي)، أم من منظور موت الإنسان (فوكو)، أم من منظور التطور الحاصل بين البداية والنهاية، وهناك معنى آخر للبداية يفيد أن بداية الشيء إنما هي شبابيه.

ثمة حنين يسكن غادامير، ومن قبله نيتشه وهيدجر، لتلك المغامرة اليونانية. إنه الحنين إلى شباب مفقود على اعتبار أن الفلسفة اليونانية كانت مغامرة فكرية أصيلة أصالة الشاب الذي يشرع في الحياة وهو مطوّق بالغموض، ولكنه يشعر في الوقت نفسه برحابة ما ينطوي عليه أفق الحياة من إمكانيات؛ وبهذا المعنى بالضبط تكون بداية الفلسفة اليونانية. يقول غادامير إن فلاسفة ما قبل سقراط تقصوا وبحثوا عن المصير النهائي من دون أن يعرفوه سلفاً، وهو مصير انبعث غني بالإمكانيات. لقد كانت الفلسفة عندهم مغامرة فكرية تحدها خبراتهم الشخصية وعلاقتهم بالعالم.

يستهل غادامير تأويله مرحلة ما قبل سقراط ببداية مختلفة. فعلى عكس ما درجت عليه التواريخ المدرسية والأكاديمية التي تتخذ من طاليس، أو هوميروس وهزيود قبله، بداية الفلسفة اليونانية والفلسفة بعامة، يقف غادامير في وسط التيار. فهو يطلّ على هذه المرحلة عبر أفلاطون وأرسطو، وهذان الفيلسوفان هما البوابتان اللتان تدفق عبرهما سيل المرحلة السابقة عليهما. إن أفلاطون وأرسطو كانا باعتبار معين مؤرخين رئيسين لمرحلة ما قبل سقراط، فالمحاورات الأفلاطونية التي كان مؤلفها أفلاطون، وكان سقراط يمثل صوت الراوي فيها، هي مسرحية لهذه المرحلة، ولكنها بكل تأكيد مسرحية تعبر عن رؤى وأفكار أفلاطون نفسه. وكذلك الحال

بالنسبة لأرسطو، فهو وإن اختلف في شكل الكتابة عن أفلاطون وطريقة العرض والمجادلة، فإن وصفه وتشديده وإظهاره لهذا المفهوم أو ذلك إنما يعبر عن موقف أرسطو وفلسفته. إذن لا يمكن المرور عبر هاتين البوابتين بأمان تام. فهذان الفيلسوفان صوّرا ونقلوا أفكار السابقين عليهما بما يتوافق مع اهتماماتهما ومصالحهما الفكرية. إذن يبدو غادامير في تأويله هذا كما لو أنه يريد تفتيت ذلك التطابق بين النصّ الفلسفي والزمن الاعتيادي، وهو تطابق رسّخه وثبته التناول السريع والتقليدي الذي يتخذ من التعاقب الزمني سبيله الوحيد للتاريخ.

أخيراً نودّ أن ننوّه بجهود بعض الأصدقاء في قراءة هذه الترجمة، وهم ألبائياً: حيدر حسن الجوّاري وسعيد الغانمي وصالح زامل وفلاح رحيم وعلي بدر وعماد حسن ومحمد غازي الأخرس وناظم عودة وهيثم سرحان ويحيى عارف الكبيسي، لهؤلاء المبدعين فضل كلّ طلاوة في هذه الترجمة لما بذلوه من جهد طيّب في قراءة مخطوطة هذا الكتاب، وما من وعورة وخطأ إلا ويتحملهما المترجمان حسب.

كما نودّ أن نثمن جهود الناشر الأستاذ سالم الزريقاني الذي يحرص دائماً، بمعرفة ثقافية مميّزة، على إظهار مثل هذه النصوص المهمة لثقافتنا العربية.

المترجمان

بين عمّان والدانمارك

كانون الثاني 2002

## الفصل الأول

### معنى البداية

لكي نقدم الموضوعة التي نعالجها هنا، الموضوعة التي احتفظت بفتنة مميزة بالنسبة لي، أودّ أن أرجع إلى ملاحظات من مجموعة محاضراتي الأخيرة في هيلديبيرغ، تلك التي عرضتها عند نهاية العام 1967. ومنذ ذلك الحين، كنتُ أفكر في أنه قد يكون جديراً بالاهتمام مواصلة ما بدأته.

إن الموضوعة هي بداية الفلسفة الإغريقية التي تمثل بداية الثقافة<sup>(1)</sup> الغربية أيضاً. وهذه الموضوعة ليست مجرد موضوعة اهتمام تاريخي. إنها موضوعة تقارب المشكلات الراهنة في ثقافتنا الخاصة التي لم تجد نفسها بمواجهة تغيّر جذري فقط، وإنما بمواجهة اللائيقين والافتقار إلى الثقة بالذات. ولذلك نحن نكافح من أجل تأسيس ارتباطات بأنواع أخرى من الثقافات

---

(1) كلمة ثقافة هنا تقابل الكلمة الألمانية Kultur.

إجمالاً، الثقافات التي ليست لها أصول في الثقافة الإغريقية بخلاف ثقافتنا. وهذا هو السبب الأول لاهتمامنا بالمرحلة الأولى لتطور الفكر الإغريقي. إن مثل هذه الدراسة عن الفلسفة قبل سقراط هي دراسة وطيدة الصلة بموضوعنا. فهي تعمق فهمنا لقدرة الخاص، القدر الذي بدأ على نحو دقيق، كما هو حال الفلسفة والعلم الإغريقيين، في تلك السنوات التي بدأ فيها رسوخ سيطرة اليونان على العالم المتوسطي سواء في البحر أم في التجارة. وقد تبع ذلك مباشرة تطور ثقافي سريع. وليس من قبيل المصادفة أن جاءت الفلسفة قبل سقراط من آسيا الصغرى، ومن منطقة ساحلية قريبة من ملطية وإفسوس، أي من الإقليم نفسه الذي هيمنت عليه تجارة منطقة المتوسط وثقافته في ذلك الوقت.

هذه إذن هي الموضوعة التي أعزم بحثها بحدود معينة من دون الادعاء باستنفادها. إن تناول هذا النوع من الموضوعات لا ينتهي بالوصول إلى غاية مفروضة، ويمكن أن تدرك ذلك بالتأكد من حقيقة أنني أنا نفسي أعود إلى الموضوع نفسه مرة أخرى بعد سنوات عديدة لكي أثير جملة من الأسئلة الجديدة التي ظهرت، أثيرها بطريقة جديدة وشكل مدروس ومفيد.

وفي هذه النقطة، أظن أن من المفيد البدء بنظرة منهاجية تقديمية سوف تسوّغ، بمعنى معين، مقتربي: إن الشيء الأساسي في محاضراتي عن الفلسفة قبل سقراط هو أنني لا أبدأ بطاليس ولا بهوميروس، ولا أبدأ باللغة الإغريقية في القرن



الثاني قبل الميلاد؛ إنني أبدأ بدلاً من ذلك بأفلاطون وأرسطو. وذلك، بحسب تقديري، هو المدخل الفلسفي الوحيد لتأويل الفلسفة قبل سقراط. وأيّ مدخل آخر يمثل نزعة تاريخية من دون فلسفة.

يتطلب هذا الزعم التمهيدي إقامة الدليل عليه. وكما نعلم، فإن الرومانسيين هم أول من وضعوا على عاتقهم مهمة بحث وتقديم تأويل للفلسفة قبل سقراط؛ ذلك التأويل الذي برز من انشغال رومانسي بالنصوص الأصلية. وفي الجامعات الأوربية في القرن الثامن عشر، لم يكن وارداً دراسة النص الأفلاطوني أو أي نص فلسفي آخر بلغته الأصلية. فقد كانت تستخدم الكتيبات. وحينما اطردت دراسة النصوص الأصلية، كان هذا الاطراد علامة على تغير في الموقف الناشئ من جامعات عظيمة كجامعة باريس وجوتنجن فضلاً عن المدارس الأوربية الأخرى التي حفظت تراث النزعة الإنسانية العظيم مثلما حصل طبعاً في الجامعات والكليات الإنجليزية في المقام الأول.

كان هيجل وشلايرماخر. معلما الفلسفة الألمانين. أول من فتح أبواب البحث والتأويل للفلسفيين في الفلسفة قبل سقراط. فالدور المهم الذي لعبه هيجل بهذا الصدد كان معروفاً، ولا يقتصر هذا على كتابه «محاضرات في تاريخ الفلسفة» الذي نشره أصدقاء هيجل بعد وفاته. (فقد كانت طبعته غير وافية حقيقةً وبقية هكذا في حقل الفكر الهيجلي، ولكن الأعمال التي نشرت بعد وفاته لم تُحرر بالاجتهاد الذي يستحقه

مفكّر بهذا الكِبَر). وفضلاً عن ذلك، ثمة أشياء أخرى في أعمال هيجل تبيّن إلى حدّ بعيد كيف كانت الفلسفة قبل سقراط مهمة بالنسبة لتفكير هيجل. خذ على سبيل المثال بداية كتابه «علم المنطق» الذي يرى فيه أن العمل «المنهجي» الذي يفترضه يولّد نفسه عن طريق الوسائل الجدلية في إطار برنامج كانط الشامل عن المنطق المتعالي (الترانسندنالي). من المفيد أن نقارن هذه البداية بالمخطوطات المبكرة التي عالج فيها هيجل نظام المقولات الكانطية لنرى كيف إن هذه التصورات تتكشف تدريجياً صوب هدف التحول الجدلي إلى الفكرة. وفي كتابات هيجل المبكرة من حقبة بينا Jena، ضاع الفصل الشهير الذي يتناول المنطق؛ وتحديدأ ضاع الفصل الأول الذي يعالج الوجود، والعدم، والضرورة. وقد أضاف هيجل هذا الفصل فيما بعد، كما إنّه عالج فيه شيئاً مبهماً تقريباً؛ أي إنه قدّم ثلاث مقولات من مقولات البداية (أي الوجود، والعدم، والضرورة) التي هي سابقة على مقولة اللوغوس، وبذلك فهي سابقة حتى على شكل القضية. بدأ هيجل بهذه التصورات البسيطة والمكتنفة بالغموض التي لا يمكن تحديدها رغم كونها متأسسة. وهنا تكمن بداية التفكير الجدلي لدى هيجل؛ البداية التي كان قد حققها أسلوب الفلسفة قبل سقراط. وفي عمل عظيم آخر لهيجل وهو «ظاهراتية الروح» نجد الشيء نفسه: فالفصول الأولى يمكن أن تُقرأ كتعليق مفرد على الفصل في تاريخ الفلسفة المكرّس للفلسفة قبل سقراط، إذ كان هيجل نفسه يلقي محاضرات عنها في ذلك الوقت. ويبدو جلياً لي أن هيجل سمح لنفسه أن ينقاد

بهذه المرحلة الأولى من الطريق الفلسفية في صوغ بناء منهجه الجدلي في التفكير. ولذلك نحن لا نستطيع أن نستنتج فقط أن البحث التاريخي في الفلسفة الكلاسيكية بدأ مع هيجل في القرن التاسع عشر، وإنما بدأ أيضاً الحوار الفلسفي مع الفلسفة قبل سقراط، ذلك الحوار الذي استهلّ بطريقة جديدة وبلا نهاية.

أما العالم والمفكر الآخر فقد كان فريدريك شلايرماخر عالم اللاهوت الشهير ومترجم أعمال أفلاطون للغة الألمانية. ففي سياق الأدب المترجم من كلّ ثقافة، يبرز إنجاز شلايرماخر كنموذج حقيقي. إنه يشكّل استهلالاً لتعاون جديد بين علماء الإنسانيات كالفيلولوجيين من جهة أولى، والمنظرين كالفلاسفة من جهة أخرى. وفي الوقت الراهن، أدت إعادة اكتشاف التراث غير المباشر للمذهب الأفلاطوني. عن طريق مدرسة توينجن التي ضمت كونراد جيسر وهانز جوكم كرامر (بحسب ليون روبن). أدت، كما تعلم، إلى ظهور تعبير جديد هو «الشلايرماخرية Schleiermacherianism». وقد أشاع هذا التعبير الرهبة بين الألمان، وأظنّ أنه يفتقر تماماً إلى علامة على محتواه. وأرى أن شلايرماخر يستحقّ مآثرة لإتاحته فرصة دراسة أفلاطون مرة أخرى ليس فقط ككاتب وإنما أيضاً كمفكر جدلي وتأملي.

وعلى العكس من هيجل، كان لدى شلايرماخر شعور خاص بالفردية والظواهر. وفي الحقيقة، كان اكتشاف الفرد، في ذلك الوقت، الإنجاز الكبير للثقافة الرومانسية. والتعبير اللافت

الذي مؤداه أن الفرد «يفوق الوصف» ومن ثم ليس هناك إمكانية لإدراك فردية الفرد من الناحية التصورية، إنما هو تعبير انبثق في الحقبة الرومانسية. وعلى نحو لا يمكن إنكاره، لم يكن هناك تراث مكتوب خلف هذا التعبير، لكن جوهره واضح سلفاً في المراحل المبكرة للميتافيزيقا الأفلاطونية والأرسطية حيث وجد تمييز اللوغوس حدوده في ماهية غير مجزأة.

يجد المرء لدى شلايرماخر تفكيراً جدلياً مرناً وتأملياً فذاً مرفوقاً بمعرفة إنسانية كلاسيكية واسعة ومؤثرة. لقد كتب شلايرماخر بوصفه عالم لاهوت، فضلاً عن أعماله الأساسية، سلسلة من المقالات توخّت إقامة تسوية ظاهرية وغير مسوّغة للفلسفة الإغريقية والمسيحية. وبفضله كانت هذه المحاولة رائدة لدراسة الفلسفة قبل سقراط. وقد كتب أحد تلاميذه، وهو كرستيان أوغست براندس، عملاً مهماً عن فلسفة الإغريق<sup>(1)</sup>، فألهم مدرسة برلين التاريخية من ذلك الوقت إلى وقت إدوارد زيلر.

أودّ الآن أن أقاطع هذه الأفكار بصدد البدايات نفسها للتاريخ الرسمي للفلسفة قبل سقراط لأثير سؤالاً ذا طبيعة نظرية: ماذا يعني القول إن الفلسفة قبل سقراط هي بداية، «مبدأ» (princípio)، للتفكير الغربي؟ وماذا نعني هنا بـ«المبدأ»؟ إذ هنالك تصورات عديدة ومتنوعة للمبدأ. وعلى سبيل المثال، من الواضح أن الكلمة الإغريقية «archê» تتضمن معنيين لـ«المبدأ»، أي المبدأ بالمعنى

(1) عنوانه: المرجع في تاريخ الفلسفة الإغريقية والرومانية Handbuch der Geschichte der Griechisch-romischen Philosophie.

الزماني للأصل والبداية فضلاً عن المبدأ بالمعنى الفلسفي. المنطقي التأملي. سوف أهمل لبرهنة حقيقة أن البداية، طبقاً للاستعمال القروسطي، تعني أيضاً وبشكل عام «الفلسفة»؛ بمعنى طائفة من المبادئ التي تشكل مذهباً. وبدلاً من ذلك، سوف أشغل نفسي بمظاهرَ وآفاقٍ عديدة عن تصور المبدأ principium بمعنى «البداية»<sup>(1)</sup>. والكلمة الألمانية «Anfang» تثير دائماً صعوبات في التفكير. فعلى سبيل المثال، ليس ثمة مشكلة بصدد بداية العالم أو بداية اللغة. ولسّر البداية جوانب تأملية جمّة، ولذلك سيكون من المهم تناول أساس المشكلات المندسّة فيه.

وبمعنى معين، رأى أرسطو الجدل المتأصل في هذا التصور. ففي كتاب الطبيعة (لاسيما في الكتاب الخامس كما أظن)، يجادل في أن الحركة تنتهي بالسكون؛ لأنه عند نهاية الحركة يجب أن يكون هناك شيء ما يبقى شاخصاً هناك وتاماً. ولكن ما بدايتها؟ ومتى تبدأ الحركة؟ ومتى تنتهي؟ ومتى يبدأ ما هو حيّ بالموت؟ ومتى يبدأ الموت؟ فعندما يموت شيء ما فإن لحظة بدايته لا تعد ذات أهمية. وهذا الأمر مشابه لسرّ الزمن الذي لم يمرّ من دون ملاحظة في إطار جدل أرسطو: أي إنه ليس للزمن بداية؛ لأن اللحظة التي نفترضها لحظة أولى تجعلنا حتماً نفكر باللحظة الأخرى أيضاً، أي اللحظة الأسبق. وإذن ليس ثمة مهرب من جدل البداية هذا.

إن كلّ ما يعنيه هذا بالنسبة لموضوعتنا واضح. فمتى بدأ

(1) كلمة البداية هنا تقابل الكلمة الألمانية Anfang.

تاريخ فلسفة ما قبل سقراط؟ هل بدأ مع طاليس كما يخبرنا أرسطو؟ وهذه إحدى المسائل التي سنتناولها في مناقشتنا. وفي الوقت نفسه، سيتوجب علينا هنا أن نلاحظ، فيما يتعلق بالبداية، أن أرسطو ذكر هوميروس وهزيود أيضاً، وهما أول مؤلفين نُظر إليهما كلاهوتيين، وربما يكون من الحق أن التراث الملحمي العظيم يمثل - سلفاً - خطوة على طول الطريق صوب التفسير العقلاني للحياة والعالم، وهي الخطوة التي استهلتها الفلسفة قبل سقراط بشكل تام.

ولكن، كان هناك شيء آخر، مادة شديدة الغموض؛ شيء يسبق التراث المكتوب بأسره، ويسبق الأدب الملحمي والفلسفة قبل سقراط أيضاً؛ تلك هي اللغة التي كان يتكلمها الإغريق. فاللغة أحد الألباز العظيمة في التاريخ الإنساني. كيف تشكلت اللغة؟ إنني أتذكر جيداً ذلك اليوم بماربورغ، عندما كنتُ يافعاً، كيف تحدثت هيدجر عن اللحظة التي رفع فيها الإنسان رأسه للمرة الأولى وطرح سؤالاً على نفسه. إن اللحظة التي يبدأ فيها شيء ما تشغل الفهم الإنساني فيتساءل: متى كان ذلك؟ وأصبح هذا الأمر الموضوع الكبير للنزاع فيما بيننا. مَنْ كان أول إنسان رفع رأسه؟ هل هو آدم؟ أم طاليس؟ وإن كان أي شيء، فإن هذا الأمر يؤثر فينا اليوم كونه أمراً مثيراً للضحك، ونحن، في الحقيقة، ما نزال جُد صغار في مسيرة الزمن. ومع ذلك، ربما أشارت هذه المناقشة إلى شيء ذا دلالة حقيقية، شيء ما مرتبط بالسرّ المحير للغة. إن اللغة، طبقاً لتعبير لاشك في أنه عائد إلى نيتشه، من ابتداء الله.

لنعد إلى اللغة الإغريقية: قدّمت الإغريقية سلفاً إمكانات تأملية وفلسفية من نوع خاص. وهنا أودّ أن أذكر اثنين منها فقط. الأول معروف جداً كخاصية أكثر خصباً للغة الإغريقية (وهي بالمصادفة خاصة مشتركة في اللغة الألمانية)، أعني بها استعمال المحايد neuter الذي يتيح لها تقديم الموضوع القصدي للفكر بوصفه ذاتاً. وعلاوة على ذلك، هناك دراسات برونو سنيل وكارل رايتهارت، هذين المعلمين العظيمين اللذين حظيتُ بفرصة طيبة للتقرب منهما. فقد قاما بتوضيح كيف أن التصور يعلن عن نفسه سلفاً في هذا الاستعمال للمحايد. وفي الحقيقة، ثمة شيء ما مبيّن في استعمال المحايد الذي لا يوجد لا هنا ولا هناك، ومع ذلك فهو مشترك بين الأشياء كلها. يدلّ المحايد في الشعر اليوناني، كما في الشعر الألماني، على شيء كليّ الوجود، على حضور شمولي. فهو لا يؤثر في كيفية وجود ما، وإنما في كيفية الفضاء الكلي لـ«الدازين»<sup>(1)</sup> الذي تتجلى فيه الموجودات.

أما الخاصية المميزة الثانية فهي واضحة أيضاً. وهي وجود

(1) لقد رأى هيدجر استحالة ترجمة هذا المصطلح إلى أية لغة أخرى. والمصطلح يتألف من مقطعين: (sein الوجود)، و (Da هنا أو هناك). ومعناه الحرفي (الوجود . هناك). «ويمكن القول بأن كلمة الـ Dasein تعني في لغتها الأصلية الوجود أو الموجود، ولكن هيدجر يقصد بها معنى مزدوجاً: «الموجود العيني الفرد الذي يكون دائماً على علاقة بالوجود وكيونة الوجود الإنساني التي ينظر إليها من خلال ذلك الموجود العيني». الوجود الحقيقي عند مارتن هيدجر، د. صفاء عبد السلام علي جعفر، منشأة المعارف، مصر، 2000، ص106. المترجمان.















